توظيف الخطاب القرآني في الخطاب الفدكي

Quranic Discourse Employment in the Fadic Discourse

م.د. آمال خلف علي آل حيدر
Lectur. Dr. Amal Khalif Ali Alhaider

توظيف الخطاب القرآني في الخطاب الفدكي

Quranic Discourse Employment in the Fadic Discourse

م.د. آمال خلف علي آل حيدر
كلية الإمام الكاظم (عليه السلام) للعلوم الإسلامية الجامعة / قسم علوم القرآن والحديث

Lectur. Dr. Amal Khalif Ali Alhaider
University College of Imam Al-Kadhim for Islamic Sciences / Department of Quranic Sciences and Hadith

Amal.alhaider2017@gmail.com

تاريخ الاستلام: ١٤/ ١/ ٢٠١٩
تاريخ القبول: ٥/ ٥/ ٢٠١٩

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

الملخص :

المسارات التي يخطها هذا البحث تؤصل الثقافة القرآنية في نفوس الأمة ؛ لأن الخطاب القرآني خطاب هداية وإرشاد (فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن) ، فالقرآن يمثل محوراً مهماً في حركة المصلحين ؛ لذا جاءت مناسبة البحث بالكشف عن التوظيف القرآني في خطبة الزهراء عليها السلام الفدكية ، ولا سيما أن حركة الزهراء عليها السلام في حد ذاتها كانت قرآنية ؛ لأن البواعث الأساسية لهذه الحركة هي إحقاق الحق وكشف الباطل ، وهذا يستدعي بيان المفاهيم القرآنية التي لازمت الحركة ، وجعل هذه المفاهيم الحاكم في بيان المسارات الحقة من المسارات الباطلة ، وهذا التقاطع في حركة المسارات يمثل ثقافة الأفراد ؛ لأن مواقف الأفراد تُبنى على أساس الثقافة ، وما السلوك الخارجي إلا مصداق على ذلك ؛ لهذا سعى الخطاب القرآني في حركته التغييرية الى تغيير ما في النفوس ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) ؛ لهذا أخذت حركة المصلحين تستهدف ثقافة الأفراد والمجتمع لعلمها بأن حركة الأفراد داخل المجتمع نتاج ما يؤمنون به من ثقافة ، والزهراء عليها السلام تُدرك ذلك وكيف لا ؟ وهي بنت خاتم النبيين وسيد المرسلين .

وهذه المفاهيم القرآنية أضحت أبعاداً تداولية في بيان القيم المعرفية في تشكلات خطاب الزهراء عليها السلام ، فضلاً عن ذلك كشف ملابسات الخطاب ، وسياقاته الثقافية .

Abstract

The current research study is to trace the Quranic culture in the hearts of the Ummah ; because the Quranic discourse is a guidance and a letter . If the temptation is to seduce you like a dark night, then you should read the Quran , it is an important axis in the reformation movement . In specificity , the movement of Zahra (peace be upon him) is a Koran as the main motivations of such a movement are to realize the truth and to uncover falsehood . It is to demand a statement of the Quranic concepts to characterize the movement and to change the interior as much as the attitudes of individuals are based on culture . That is why the movement of reformers targets the culture of individuals and society : the movement of individuals in a society is the product of what they believe in culture . Thus Al-Zahra (peace be upon them) is quite aware of the fact that the movement of individuals in the society is the result of what they believe in . So there is no impossibility with the daughter of the Seal of the Prophets and the Master of the Messengers.

These Quranic concepts become an informative dimension in manifesting the knowledge values , in forming the speech of Al-Zahraa (peace be upon them) and in exposing the circumstances and reasons of the cultural contexts as well.

توطئة

تشكل المعارف القرآنية في أبعادها التداولية أساساً لكل الخطابات الدينية المطبوعة بطابع « النصح والإرشاد» ، ولاسيما خطاب الزهراء عليها السلام الذي يعد امتداداً طبيعياً للخطاب القرآني في دائرة المفاهيم ، ومساحات الاشتغال في إطار السلوك العملي التطبيقي بشقيه الضمني والمباشر .

وهذا التوظيف للنصوص القرآنية أضحى يمثل أبعاداً معرفية قيمية ، تمسك بها النص فأضحى سمته ، فضلاً عن ذلك معرفة يدعو إليها ، تمثل السلوك الخارجي الذي يجب الالتزام به ، وهذه المحاكاة تشكل بلاغة في الاقناع ؛ لأنها ألزمت متلقي الخطاب الحجة في ضوء الاستحضار الذي استقدمه المتكلم – السيدة الزهراء عليها السلام – من النصوص القرآنية التي وظفتها في خطابها ، التي شكلت العماد في مواجهة القوم ؛ لأن القوم التزموا ضمناً وظاهراً به .

وهذه المعرفة القرآنية التي يقدمها خطاب الزهراء عليها السلام ، تكشف عن مناسبة القول وصلته بظروف نشأته ، وفي ضوء تلك « **المقتضيات الحوارية** »تنتخب السيدة الزهراء عليها السلام النصوص القرآنية ذات المفاهيم التي تروم وضعها أمام مستقبلي الخطاب من أجل تحقيق الأهداف التي استدعت القول .

وهذه المفاهيم هي الأساس في حركة الفرد في سلوكه الخارجي ؛ لأن السلوك الخارجي كالمرآة يعكس المفاهيم التي تمكنت من الفرد ، فإذا أردت أن تغير السلوك الخارجي وتقومه وجب عليك تغيير المفاهيم التي يؤمن بها الفرد ، وبخلاف ذلك لا تستطيع فعل شيء إزاء ذلك ، فالتغيير مرهون بتغيير المفاهيم وتعديلها ، وهذا المسوغ الأساسي في تبني المفاهيم القرآنية في حركة التغيير؛ لأنها مفاهيم حقيقية وقابلة للتبني ، والعمل بها .

المطلب الأول

الخطبة الفدكية : بين إشكاليات القراءة وآليات التطبيق

تعدد زوايا النظر في المنجز القولي ينتج قراءات متعددة ، وهذه القراءات قد تمثل إسقاطات القارئ على النص ، فهو بذلك لا يفسر النص ويكشف عن معانيه الحقيقية ، بل يكشف عما يحمله اتجاه النص ، أما خطاب السيدة الزهراء عليها السلام فإنه يشكل خطاً بيانياً يكشف عن خطين متوازيين بين الرقي والانحطاط والمعيار الفاصل بين الاثنين بيَن القراءات المتعددة ، فسلطت السيدة الزهراء عليها السلام الأضواء على أساسيات الإسلام المتمثلة بأصول الدين وفرعه ، موضحة علل تشريع الأحكام العبادية التي كلف الله تعالى بها عباده بأسلوب شيَق يأخذ بمجامع القلوب العارفة بالله فتطرقت بالتدريج شارحةً للعبادات بما يلي :-

فلسفة العبادات :- ذكرت السيدة الزهراء عليها السلام توضيحاً مُركزاً لجملة من التشريعات العبادية ، فضلاً عن الفائدة المرجوة منها فقالت ((**فجعل الإيمان تطهيراً لكم من الشرك ، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكِبر ، والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق ، والصيام تثبيتاً للإخلاص ، والحج تشييداً للدين ، والعدل تنسيقاً للقلوب ، وطاعتنا نظاماً للملة ، وإمامتنا أماناً من الفرقة ، والجهاد عزاً للإسلام ، والصبر معونة على استيجاب الأجر ، والأمر بالمعروف مصلحة للعامة ، وبر الوالدين وقاية من السخط ، وصلة الأرحام منماة للعدد ، والقصاص حقناً للدماء ، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة ، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس ، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس ، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة ، وترك السرقة إيجاباً للعفة ، وحرم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية ،(فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتُنَ إلا وأنتم مسلمون)**[1] ، **وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه فإنه (إنما يخشى الله من عبادهِ العلماءُ)**[2]))[3]،يظهر جلياً تعليل السيدة الزهراء عليها السلام

لفرائض الله تعالى إذ قالت:(**فجعل الإيمان تطهيراً لكم من الشرك**) أرادت بذلك أن الله تعالى أوجد الإيمان بمنظومته القيمية الكُبرى ؛ ليطهركم أيها الناس من دنس الشرك والضلال ، فإذا استقر الإيمان في قلوبكم واستيقنته نفوسكم ، شرع فرائض العبادة فقالت ﷺ:(**والصلاة تنزيهاً لكم عن الكِبر**) أشارت إلى الهدف من تشريع الصلاة ؛ بأنها ترتقي بكم وتُنقِيكُم من الكبرياء والتكبر الذي لا ينبغي إلا لله تعالى ففي الصلاة إذعان بالعبودية ، وإقرار بالربوبية ، وفي (**الزكاة**) قالت (**والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق**) مُبينةً أن استخراج الزكاة من أموالكم ؛ فيه طيب لأنفسكم قبل أموالكم ، فتشعرون بالراحة والطمأنينة ، فضلاً عن تنامي رزقكم وتزايده ، وذكرت ﷺفضل الصيام فقالت (**والصيام تثبيتاً للإخلاص**) فتأدية الفرد المسلم لفريضة الصيام يدل على إخلاص الإنسان لخالقه ، فضلاً عن إنه اختبارٌ للخلق في صبرهم على الطاعات ، واصلت السيدة الزهراء ﷺوصفها الدقيق لفروع الدين الحنيف مُشيرةً بقولها (**والحج تشييداً للدين**) فالحج يُعد تظاهرة دينية عالمية تتلاشى فيها كل الفوارق الطبقية والعرقية ، فضلاً عن إظهار قوة الدين.

توظيف النص القرآني :- استغرقت السيدة الزهراء ﷺفي وصفها فضل أهل البيت ﷺ قائلةً (**وطاعتنا نظاماً للملة ، وإمامتنا أماناً من الفرقة**) [٤] ، كذلك بيَنت للناس مدى مشروعية طاعة أهل البيت ﷺ ؛ لأن الطاعة لهم هي مظهر لنفوذ العدل الإلهي ، وتوضح الزهراء ﷺ أن طاعتهم نظام لأمور المسلمين ، وإمامتهم أمان من الفرقة التي تنخر جسد الإسلام فضلاً عن المسلمين ؛ لاقترانها بطاعة الله ورسوله ﷺ ؛ ولأنها طاعة بالمعروف ، فلا طاعة للحاكم أو غيره في غير المعروف ، ونستقري من نص الخطبة أحد المفاهيم المعرفية القرآنية المتمثلة بمفهوم الطاعة الذي يُعد إحدى الإشكاليات التي لم يعِ المجتمع آنذاك قراءتها فضلاً عن آلية العمل بها ، لذا أكدتها

السيدة الزهراء بقولها(**وطاعتنا نظاماً للملة ، وإمامتنا أماناً من الفرقة**) وكأنها تشير إلى ما ورد في القرآن الكريم (**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**)[٥] بما يؤيد دعواها ؛ موضحةً ذلك لعامة الناس الذين كانوا بين مؤيدٍ ورافضٍ لها مع علمهم بالنص القرآني الذي استدلت به ؛ لأنهم كانوا يعرفون القرآن بل يقرؤونه كما يزعمون ، فجاء استدلالها عليها السلام بالنص القرآني دحضاً لحجتهم وإسكاتاً لهم ، ودعماً لدعواها ، إن التصريح القرآني بوجوب طاعة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وطاعة أولي الأمر من بعد الرسول إنما هي امتداد لطاعة الله تعالى ، فطاعة الله تعالى تتمثل في امتثال أحكامه فضلاً عن الالتزام بالحلال والحرام ، أما طاعة الرسول وأولي الأمر تُعد طاعة أخرى، كذلك أشارت عليها السلام إلى ضرورة التمسك بالإسلام والتحذير من مغادرة الحياة على غير الإسلام فأشارت ضمناً الى النص القرآني بقولها :

(**فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتُنَ إلا وأنتم مسلمون**) ((**ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تُقاتهِ ولا تموتُنَ إلا وأنتم مسلمون**))[٦]

وقوله تعالى: ((**ومن يبتغِ غير الاسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**))[٧]

فقد وضحت الزهراء عليها السلام أن الدين الحقيقي هو الاسلام ، أي التسليم لأمر الله بمعناه العام ، وأما بمفهومه الخاص فهو الانتقال الى الدين الاسلامي الذي هو أكمل الأديان فتقول الآية : إنه لا يقبل من احد سوى الاسلام مع الأخذ بنظر الاعتبار احترام سائر الشرائع الالهية المقدسة ، وأما الذين يتخذون غير هذه الحقيقة ديناً ، فلن يُقبل منهم أبداً ولهم عقاب شديد ((وهو في الآخرة من الخاسرين)) ؛ لأنه تاجر بثروة وجوده مقابل بعض خرافات وتقاليد بالية وعصبيات جاهلية وعنصرية ، ولا شك أنه هو الخاسر في هذه الصفقة ، وإذا ما خسر الإنسان ثروة وجوده ، وجد نتيجة ذلك حرماناً وعذاباً وعقاباً يوم القيامة .[٨]

المطلب الثاني

مفاهيم المعرفة القرآنية في الخطبة الفدكية

المحددات والمناهج

أُثر عن السيدة الزهراء عليها السلام خطبتها المعروفة ب (الخطبة الفدكية) التي مثلت منظومة معرفية مثالية ، فكانت مليئة بالمفاهيم القرآنية ذات الأبعاد القيمية في المجتمع المحفوف بالفتن والأحقاد ، فالزهراء عليها السلام أرادت أن تُنبه الناس على مدى الخطأ الذي ارتكبه القوم في حق الأمة الإسلامية فضلاً عن حقها ، من خلال احاطتها بمتطلبات المرحلة التي كان يمُر بها المسلمون آنذاك ؛ لذا وجهت خطبتها إلى ثلاث فئات من المخاطبين هم :-

أولاً :- عامة الناس ، نلمح في خطابها عليها السلام لعامة الناس من الحضور في المسجد إلى تذكيرهم بأنهم مسؤولون تجاه الله تعالى ، بقولها ((**أنتم عباد الله نُصب أمره ونهيه وحملة دينه ووحيه ، وأمناء الله على أنفسكم ، وبلغاؤه إلى الأمم ، زعيم حقٌ له فيكم ، وعهدٌ قدمه إليكم ، وبقية استخلفنا عليكم كتاب الله الناطق والقرآن الصادق والنور الساطع والضياء اللامع ، بينةٌ بصائرهُ ، منكشفةٌ سرائرهُ ، متجلية ظواهرهُ ، مغتبطٌ به أتباعهُ ، قائداً إلى الرضوان أتباعهُ ، مؤدٍ إلى النجاح استماعهُ ، به تُنال حُجج الله المنورة ، وعزائمهُ المفسرة**))[9] أي إنكم منصوبون لأوامر الله تعالى ونواهيه ؛ لأنكم كنتم حاضرين عند ورود الأوامر والنواهي وإنكم حاملو الأحكام ؛ لمعاصرتكم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فضلاً عن أحكامه التي كان يصدرها ، ((**وحملة دينهِ ووحيهِ**)) وأنتم الحاملون لآيات القرآن الكريم حينما كان جبرائيل يَنزل على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله[10] ، ((**وأمناء الله على أنفسكم**)) أنتم الذين ائتمنكم الله على دينه ، فتتلقون أحكامه من الرسول محمد صلى الله عليه وآله ومن ثُم تُلقوها إلى مَنْ لم

يتعلموا تلك الأحكام ، ((**وبلغاؤه إلى الأمم**)) بما أن العلوم تتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل على مر العصور والأزمان وإنكم مَنْ عاصرتم رسول الله ﷺ وسمعتم أحاديثه وتعلمتم سنته ؛ لذا وجب عليكم أن تُبلغوا ما عرفتموه عنه ، فأنتم المُبلغون لتعاليم الإسلام إلى الأمم القادمة ، فعليكم مسؤولية كُبرى تجاه الإسلام فضلاً عن المسلمين ، وعليكم تبليغ الأحكام كما أنزلها الله تعالى شأنه ، من غير تلاعب أو تحريف ؛ لأنكم ((**أمناء الله على أنفسكم ، وبلغاؤه إلى الأمم**)) ، وقد وضحت الزهراء عليها السلام المفاهيم المعرفية لدى متلقي الخطاب مُحذرةً إياهم من خيانة الأمانة وعدم أدائها وتبليغها ، وما سيلحق بهم من الوزر على كل انحراف في الدين فضلاً عن المسلمين ، ((**وبقية استخلفنا عليكم ، ومعنا كتاب الله**)) تُشير هذه الجملة إلى ما ورد عن رسول الله ﷺ بقوله ((**إني تاركٌ فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَ الحوض**)) ، كذلك بينت الزهراء عليها السلام مدى مشروعية الخلافة لأهل البيت عليهم السلام من خلال قولها ((**وبقية استخلفنا عليكم**)) ؛ لأن خلافتهم هي مظهر من مظاهر نفوذ الاستخلاف الذي يحكم به الحكام منهم عليهم السلام ، وتوضح الزهراء عليها السلام أن طاعتهم مفروضة لاقترانها بطاعة الله ورسوله ﷺ ؛ ولأنها طاعة بالمعروف نستقري من نص خطبة الزهراء عليها السلام أحد المفاهيم المعرفية القرآنية المتمثلة بمفهوم الخلافة ، وكأن السيدة الزهراء عليها السلام أرادت من قولها ((**وبقية استخلفنا عليكم**)) إشارة إلى النص القرآني ((**وعدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَسْتَخلِفَنَهُمْ في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم**))[11] ؛ دحضاً لحجتهم وإسكاتاً لهم ، ودعماً لدعواها في حق الخلافة لهم صلوات الله عليهم أجمعين ، إن التصريح القرآني بوجوب الاستخلاف في الأرض من بعد الرسول ﷺ إنما هو امتداد لطاعة الله تعالى ، فطاعة الله تعالى تتمثل في امتثال أحكامه فضلاً عن

الالتزام بالحلال والحرام ، أما طاعة الرسول وأولي الأمر تُعد طاعة أخرى غير طاعة الله تعالى في الأحكام الشرعية ؛إذ إن هناك دائرة من الفراغ التشريعي تترك لأولياء أمور المسلمين فيما تتطلبه مصلحة الإسلام والأمة الإسلامية مما لا يمكن ضبطها في الشريعة بأحكام ثابتة فيتجسد هنا دور القائد المفترض الطاعة ، ولكي يؤدي القائد أو الحاكم هذا الدور الفعّال والصعب لابد من توافر شروط ثلاثة في الرعية تجاه الحاكم وهي :- **(النصرة) و(الحب) و(الطاعة)**، ولم تكن العناصر الثلاثة حاضرة في نفوس متلقي خطاب السيدة الزهراء عليها السلام فلا نُصرة لها ، ولا طاعة ، فضلاً عن المودة فبينت للناس أنه لابد من سيادة المودة والانسجام بين الرعية وبين الحكام فضلاً عن النصرة والإذعان بالخلافة حتى يتمكن الحاكم من أداء مهامه .

ثانياً :- السلطة ، تمثل هذه الفئة الجبهة المعارضة للزهراء عليها السلام فكان خطابها معهم يتجلى فيه سيل من الأدلة والبراهين التي تصدح بالحق ، فضلاً عن تداول النصوص القرآنية في كلامها ، ومن كلام لها عليها السلام مخاطبة رئيس الدولة الإسلامية آنذاك قائلةً **)) يا ابن أبي قحافة ! أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرثُ أبي ؟ لقد جئت شيئاً فرياً !! أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم ؟ إذ يقول ((وورث سليمان داود))**[١٢] ، **وقال فيما اقتص من خبر زكريا إذ قال : ((فهبْ لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب))**[١٣] ، **وقال ((وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله))**[١٤] **((يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين))**[١٥] ، **وقال ((إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين))**[١٦] **وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي أفخصكم الله بآية أخرج أبي منها ؟ أم تقولون إن أهل ملتين لا يتوارثان ، أولست أنا وأبي من ملةٍ واحدة ؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي ، فدونكها مخطومة مرحولة ، تلقاها يوم حشرك ، فنِعم**

الحَكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ولا ينفعكم إذ تندمون))[١٧] ، حينما وجهت السيدة الزهراء عليها السلام خطابها إلى رئيس الدولة ، لم تقلْ له : (**يا خليفة رسول الله**) ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يخلفه من بعده وإنما قالت (**يا ابن أبي قحافة**) فكان هذا التوجيه المباشر لرأس السلطة دلالة واضحة على عدم الرضا عنه فضلاً عن غيره ، واسترسلت في خطابها الذي لم يبتعد عن المنهج القرآني فنهلت من معينه الذي لا ينضب محاججةً به مَنْ طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فهم لا يفقهون ، فجاء استدلالها عليها السلام بالنصوص القرآنية سالفة الذكر مُذكرةً لرأس السلطة بأن الحق لمحمد صلى الله عليه وآله ولذريته من بعده ، وفي المجال الآخر من المجالات الرحبة التي حازت الزهراء عليها السلام على المرتبة الأولى فيها ببلاغتها وفصاحتها ، فضلاً عن اسلوبها الذي امتاز بالاقتصاد اللغوي وتكثيف العبارات المنطوية على الشفرات الدلالية ، والاستدلال بالنص القرآني الحاضر في ذهن الزهراء عليها السلام، فتقول ((**أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرثُ أبي**)) مخاطبة إياه ومطالبة بدليل مشروعية منعها من إرثها ، مستدلة بما ورد في القرآن الكريم على صحة الميراث فالمقياس هو الدين والميزان هو كتاب الله وشؤون الميراث بينة فيه ومحكمة[١٨] ، مُبطلة دعواهم فيما يقولونه عن رسول الله صلى الله عليه وآله ((نحن معاشر الأنبياء لا نُوّرِث)) ، نلحظ في خطاب الزهراء عليها السلام الاستفهام... والاحتجاج ... والإدانة ... في جمل قصيرة تُعلِمْ بها الخصم برأيها للوهلة الأولى ، بل قبل الخوض في التفاصيل، لما في ذلك من التأثير الشديد على متلقي الخطاب ، فضلاً عن معرفتها عليها السلام بمخططات القوم وتحركاتهم وإنذاراً منها لهم ، وليس كما يتوقعون بعدم التفاتها لما يقومون به من دسائس يُراد بها تشويه روح الإسلام النقية من خلال الإساءة لذرية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وتحريف ما جاء به ، والاعتراض عليه .

ثالثاً :- الأنصار ، وهم الفئة الأخرى التي خاطبتها الزهراء عليها السلام وامتاز خطابها معهم باستخدام العبارات الموجزة والدقيقة ، إذ يُعد الأنصار من فُضلاء القوم ؛ لأنهم نصروا رسول الله صلى الله عليه وآله لما هاجر من مكة إلى المدينة ، فقد استنصرتهم الزهراء عليها السلام بعبارات موجهة إليهم خاصة مُذكرةً إياهم بماضيهم المشرق فقالت لهم: ((**يا معشر النقيبة وأعضاد الملة وحضنة الإسلام ، ما هذه الغميزة في حقي ؟ والسِنةُ عن ظلامتي ؟ أما كان رسول الله أبي يقول ((المرءُ يُحفظ في ولده)) ؟ سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا إهالة ، ولكم طاقة بما أُحاولُ وقوة على ما أطلب وأُزاول ، أتقولون : مات محمد فخطبٌ جليل استوسع وهنه واستنهر فتقه ، وانفتق رتقه وأظلمت الأرض لغيبته وكُسفت النجوم لمصيبته أكْدت الآمال وخشعت الجبال وأُضيع الحريم وأُزيلت الحرمة عند مماته فتلك – والله – نازلة كبرى ، والمصيبة العظمى لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه – في أفنيتكم في ممساكم ومصبحكم هتافاً وصراخاً وتلاوة وألحاناً ولقبله ما حلَ بأنبيائه ورسله حُكم فصل ، وقضاء حتم ((وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرُسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومَنْ ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين))** [١٩] ، إن للتمرد والعصيان الاجتماعي صورا مختلفة ، منها (**الانقلاب**) فهو يعني بالمعنى الأعم قيام فئة من الجهاز الحاكم ضد فئة أخرى بحيث يكون همها إبعاد الفئة الأخرى عن مجال القدرة ، ويتولد الانقلاب من جراء التنازع على القدرة والسلطة ، وبدافع إبعاد المنافسين بأي شكل من الأشكال عن مركز القرار؛ لذا لا يمكن أن يُعد هذا الانقلاب صلاحاً لأفراد المجتمع كافة ، وإن كان في الظاهر يدعو إلى كسب تأييد العامة من خلال بعض النشاطات ، فضلاً عن الاستدلال بأقوال داعمة لدعواهم[٢٠] ، وهو الاسلوب نفسه الذي اتبعه القوم الذين وصفهم الله تعالى في

الآية المتقدمة التي استدلت بها السيدة الزهراء عليها السلام في بيان حال القوم الذين غصبوا حقها ، وأبعدوها بشتى صنوف الإبعاد عن مظان القرار، فبعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله عمد بعضهم إلى إضعاف جانب البيت النبوي من الناحية الاقتصادية ، فضلاً عن الناحية السياسية فجاءت المؤامرات متعاقبة عليهم حتى تحقق الهدف المرجو وهو مصادرة حقوق السيدة الزهراء عليها السلام بعد الإمساك بدفة الحكم من طريق (**الانقلاب**) الذي أشارت إليه بالنص القرآني [٢١].

المطلب الثالث

المعرفة القرآنية وحضورها الاستدلالي في الخطبة الفدكية

يمتاز الخطاب الفاطمي بأبعاده المعرفية ذوات الارتباط الوثيق بالقرآن الكريم ، والتي لابد أن تنبثق منها أبعاد لها دلالات متعددة يُستدل من خلالها على ما يريد الخطاب إيصاله للمتلقي ، ولذلك نتجت أبعاد استدلالية من المعرفة القرآنية منها :-

أولاً :- البعد المعرفي ، من أوضح الأبعاد الاستدلالية التي ظهرت في الخطاب الفاطمي ، هو البعد المعرفي الذي تضمنته خطبة الزهراء عليها السلام عن المنظومة المعرفية الإسلامية في التوحيد والنبوة والإمامة فضلاً عن تجلي هذا البعد في رحاب القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وسيرة أهل البيت عليهم السلام ، ومما ورد على لسان السيدة الزهراء عليها السلام في بيان حقيقة القرآن ورسالته وأهدافه وفضله وكيفية الارتواء من معينه الثر تأكيدها عليها السلام ضرورة اتخاذ القرآن الكريم إماماً للوصول إلى بر الأمان ، قالت : ((**كتاب الله الناطق ، والقرآن الصادق ، والنور الساطع والضياء اللامع ، بينةٌ بصائره ، منكشفةٌ سرائرهُ ، مُتجليةٌ ظواهرهُ ، مُغتبطةٌ به أشياعهُ ، قائد إلى الرضوان أتباعهُ ، مُؤدٍ إلى النجاح إسماعهُ ، به تُنال حُجج الله المنورة ، وعزائمه المفسرة ، ومحارمهُ المُحذرة ، وبيناته الجالية ، وبراهينهُ الكافية وفضائلهُ المندوبة ، ورخصهُ الموهوبة ،**

وشرايعهُ المكتوبة))[٢٢] ، إن ما ذكرته الزهراء عليها السلام من حث الناس وتشويقهم إلى الارتباط الوثيق بالقرآن الكريم ؛ لأنه الكتاب الحق والبرهان الواضح الذي لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه ، فضلاً عن سعيها الحثيث لمد الجسور بين المجتمع الذي يرزح تحت الظلم والجهل وبين النص القرآني ، وتعمل على تصحيح المسارات الخاطئة في المجتمع من خلال جعل التداول بالنص القرآني منهج عمل يعكس الارتباط الوثيق بالقرآن الذي وصفته السيدة الزهراء عليها السلام ب ((**النور**)) في قولها ((**والنور الساطع**)) مصداقاً لما ورد في النص القرآني ((**فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير**))[٢٣] ، وتدعوهم إلى التمسك به ومعرفته من خلال معرفة أهل البيت سلام الله عليهم أجمعين ، موضحةً بذلك أن أهل البيت عليهم السلام هم أهل القرآن والأعلم بتفسيره و حقائقه الدفينة ؛ لأنهم عِدل القرآن الكريم وهو الثقل الثاني الذي تركه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال: (إني تاركٌ فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدي) ، يرسم النص الخط المستقيم في الأمة بالأمر الناجز بمودة أولي القربى التي هي الحسنة الكبرى ؛ لأن بمودتهم يتكرس الخط القيادي السليم[٢٤] ، وتواصل الزهراء عليها السلام وصفها للقرآن بأنه (**قائد إلى الرضوان أتباعهُ ، مُؤدٍ إلى النجاح إسماعهُ**) فهو يقود مَنْ اتبعه إلى الرضوان ، فضلاً عن النجاح الذي يحرزه المستمع إليه على وجه المعرفة والتفكر .

ثانياً :- البعد القيمي، لا يخلو الخطاب الفاطمي من الاهتمام بالبعد القيمي في طياته من خلال تشخيص الواقع الإسلامي فضلاً عن المسلمين في وقتها وما اعتراهم من الفتور بل الخضوع لحكام الجور والضلال ، وقد شخصت الزهراء عليها السلام واقع المسلمين بعد وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ، وبيّنت أن هذا الانقلاب على الأعقاب يُراد منه الوصول إلى مرحلة تغييب وعي الأمة ، وإبدال المنظومة القيمية

التي جاء بها النبي الأكرم ﷺ بقيم أخرى تعود بالمسلمين إلى زمن الجاهلية المقيتة ، ومما ورد في خطابها ﷺ بعد ما فعله القوم معها ، دخلت المسجد ومما قالته ((**يا معشر النقيبة وأعضاد الملة وحضنة الإسلام ، ما هذه الغميزة في حقي ؟ والسِنةُ عن ظلامتي ؟ أما كان رسول الله أبي يقول ((المرءُ يُحفظ في ولده)) ؟ سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا إهالة ، ولكم طاقة بما أُحاولُ وقوة على ما أطلب وأُزاول ، أتقولون : مات محمد فخطبٌ جليل استوسع وهنه واستنهر فتقه ، وانفتق رتقه وأظلمت الأرض لغيبته وكُسفت النجوم لمصيبته أكْدت الآمال وخشعت الجبال وأُضيع الحريم وأُزيلت الحرمة عند مماته فتلك – والله – نازلة كبرى ، والمصيبة العظمى لا مثلها نازلة ولا بائقة عاجلة أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه – في أفنيتكم في ممساكم ومصبحكم هتافاً وصراخاً وتلاوة وألحاناً ولقبله ما حلَ بأنبيائه ورسله حُكم فصل ، وقضاء حتم ((وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرُسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ومَنْ ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين))**[٢٥] ، لقد عقدت السيدة الزهراء ﷺ مقارنة دقيقة بين ماضي المسلمين وحاضرهم ، بتوظيف النص القرآني في خطابها مُحذرةً إياهم من الاستمرار بالابتعاد عن القيم الإسلامية الصحيحة إذ سيكون مستقبلهم كماضيهم من جهة الفرقة والتخلف والنفاق وسقوطهم في الفتنة مُذكرةً إياهم بأن وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ليست مبرراً للسقوط في الفتنة التي أرادها الحكام شأناً دنيوياً لا دينياً من خلال إسقاط ظلال منهجيات الحكم البشري على منهجية الحكم الإلهي / النبوي[٢٦] ، و الفتنة هي (مجموعة المثيرات والمغريات الموجودة في واقع حياة الإنسان ، مثل المال ، والسلطان ، والموقع)[٢٧] ، وهي بخلاف الأهواء ، فالأهواء كامنة في النفس البشرية ، أما الفتنة فتكون خارج النفس البشرية ، وتُعد من أخطر

الأمراض الاجتماعية المستشرية إذ تعمل على سلب الرؤية الصحيحة لمجريات الأمور والأحداث ويفقد الناس النور والهدى الذي منحهم الله إياه فيتخبطون في ظلمات الفتنة ، ويلتبس عليهم الحق بالباطل فلا يميزوا حقاً ، ولا باطلاً ، ولا يميزوا بين إمام هدى ، وإمام ضلال ، ومن هذه الفتن ما حدث للمسلمين بعد الرسول الأكرم ﷺ وهو ما استدلت به السيدة الزهراء عليها السلام من خلال التناص القرآني في خطبتها مبينةً البعد القيمي من الرسالة السماوية التي تدعو إلى التوحيد والإقرار بالعبودية للذات المقدسة والتي يُعد النبي الأكرم ﷺ المُبلغ لتلك الرسالة ، وإن الرسالة ستبقى مستمرة ويقوم عليها ذرية النبي صلوات الله عليهم أجمعين ، مُبينةً الانقلاب على الأعقاب والارتداد الذي حصل في الأمة ' فضلاً عن إنكار حق الولاية لذرية النبي الأكرم ﷺ ، فقد عمد القوم إلى التطاول على حق الزهراء عليها السلام فضلاً عن منعها إياه ، ولا يدلُ هذا التخبط والخذلان إلا على إطباق فكَي الفتنة على الأمة التي تركت ولاة أمرها ، وأوكلت أمرها إلى غير أهلِهِ ، فسلبتهم النور والرؤية بالشكل الصحيح .

ثالثاً :- البعد الأخلاقي ، تجسد البعد الأخلاقي قولاً وفعلاً في خطبة السيدة الزهراء عليها السلام بما يرتبط بالمعرفة القرآنية البحتة، ويمثل البعد الأخلاقي حجر الأساس في حركة الفرد المتمثلة بسلوكه الخارجي ؛ لأن السلوك الخارجي كالمرآة يعكس المفاهيم التي تمكنت من الفرد ، وبما أن الأبعاد الأخلاقية التي تبنتها الزهراء عليها السلام لم تبتعد عن رحاب النص القرآني فأضحت أبعاداً تداولية ذات طابع أخلاقي أرادت أن تطبقها تطبيقاً عملياً فذكرت نصاً جاء فيه ((**والأمر بالمعروف مصلحة للعامة ، وبر الوالدين وقاية من السخط ، وصلة الأرحام منماة للعدد ، والقصاص حقناً للدماء ، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة ، وتوفية المكاييل والموازين تغيراً للبخس**

، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس ، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة ، وترك السرقة إيجاباً للعفة)) يُعنى هذا النص باستنهاض الإنسان ليمارس دوره الفاعل في الحياة ، ويستظهر طاقاته الكامنة من خلال تسلحه بعلو الهمة والطموح المشروع ، وضحت السيدة الزهراء عليها السلام مجموعة من الأخلاق الفاضلة التي ينبغي أن يعمل الإنسان جاهداً لكسبها فقالت :(**والأمر بالمعروف مصلحة للعامة**) أشارت عليها السلام إلى ضرورة الأمر بالمعروف فإنه واجب على كل مسلم ، فوجّهتْ نظر المجتمع نحوه بأنه مصلحة للعامة فضلاً عن الخاصة فيما إذا التزموا به ، مقربةً إياه إلى أذهان العامة باستخدامها مفردة (**مصلحة**) فالنفس البشرية ميالة بطبعها لكل ما يخدم مصالحها ، واسترسلت بعد ذلك في ذكر أصناف المعروف (**وبر الوالدين وقاية من السخط ، وصلة الأرحام منماة للعدد ، والقصاص حقناً للدماء ، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة ، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس**) فوصفت بر الوالدين وقاية من سخط الله ، وإن ما يُوجب رضا الله هو رضا الوالدين ؛ لأن رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما ، كما ورد في الأحاديث الواردة عن النبي محمد صلى الله عليه وآله ، وذكرت أيضا صلة الرحم ووصفتها بأنها زيادة للعدد والعمر ، والقصاص وصفته بأنه حقن للدماء ، وكأنها تُشير إلى المقولة المعروفة « مَنْ أمِن العقاب أساءَ الأدب » فإذا عُطل القِصاص اُستبيحت الدماء من دون مطالبة ، ووصفت الوفاء بالنذر الشرعي –تحديداً– عرضاً لقبول المغفرة من الله تعالى ، والوفاء بالكيل والموازين تغييراً لحالة بخس الناس أشياءهم .

الخاتمة

في مسعى لكشف الإضاءات القرآنية في خطبة الزهراء عليها السلام الفدكية والظروف التي استدعتها تمثلت مواقف ، وقراءة هذه المواقف عبر المنظومة المعرفية للأفراد تكون كاشفة عن حقائق عدة ، وقد أثبت البحث مجموعة من النتائج التي يمكن إجمالها على النحو الآتي :-

١-أثبت البحث أن حركة الزهراء عليها السلام حركة قرآنية تحمل مضامين وقيما سماوية .

٢-بيّن البحث مفاهيم قرآنية كثيرة لها مساس مباشر بحركة الأفراد داخل المجتمع .

٣-أثبت البحث أن خطبة الزهراء عليها السلام تأطرت بإطار التوجيه والنصح والإرشاد .

٤-رسم البحث مناطق الاشتغال في ضوء المفاهيم القرآنية ، فكشف عن آليات توظيف النصوص في خطاب الزهراء عليها السلام وأبعادها المعرفية في إصلاح المجتمع .

٥-كشف البحث عن عمق الاستدلال القرآني في الخطبة الفدكية ، لاسيما أنه يشكل وحدة معرفية لا نزاع عليها بين أطراف الخطاب ، وهو بذلك مثل حججاً منطقية لا يمكن نقضها أو التشكيك فيها .

٦-كشف البحث عن بلاغة الخطاب الفاطمي في أبعاده المعرفية ، وقيمه التواصلية ، فشكل حجة على متلقيه في بعده الكوني .

هوامش البحث:

١- سورة ال عمران:١٠٢
٢- سورة فاطر : آية : ٢٨
٣ - بحار الأنوار ٢٩ / ٨٢
٤- بحار الأنوار ١٨/ ٢٥٧
٥- سورة النساء : آية : ٥٩
٦ - سورة آل عمران : آية : ١٠٢
٧ - سورة آل عمران : آية : ٨٥
٨- يُنظر :- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل٢/ ٣٤٥،٣٤٧
٩- بحار الأنوار ٢٩/ ٨٤
١٠- ينظر :- فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد / ٢٥٧
١١- سورة النور : آية : ٥٥
١٢- سورة النمل : آية : ١٦
١٣- سورة مريم : آية : ٦
١٤- سورة الأنفال : آية : ٧٥
١٥-سورة النساء : آية : ١١
١٦- سورة البقرة : آية : ١٨٠
١٧- بحار الأنوار ٢٩/ ٨٤
١٨-ينظر : فاطمة صوت الحق الإلهي/ ١٠٤
١٩-سورة آل عمرن : آية : ١٤٤
٢٠-ينظر : النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ/ ٤٢٩
٢١-ينظر : ملحمة الزهراء / ٨٧
٢٢-ارشاد القلوب ١/ ٧٩
٢٣-سورة التغابن : آية : ٨
٢٤-مقاصد السور :١٨٨
٢٥-سورة : آل عمران : آية : ١٤٤
٢٦-ينظر : فدك - ابعادها- دلالاتها- وامتداداتها / ١٥٣
٢٧-في رحاب القرآن ٧ الإصر والأغلال : ١٠٦

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

❁ارشاد القلوب ، الحسن بن أبي الحسن علي الديلمي (ت ٨ق) ، بيروت : مؤسسة الأعلمي ، ١٣٩٨ق .

❁الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، تأليف العلامة الفقيه المفسر الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ، منشورات الأعلمي بيروت – لبنان ط١ ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م .

❁بحار الأنوار الجامعة لدرر اخبار الأئمة الاطهار، تأليف العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي قدس سره ، دار التعارف للمطبوعات بيروت لبنان ، ط١ ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م .

❁فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد ، تأليف العلامة الخطيب السيد محمد كاظم القزويني ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان ، ط١ ١٤١١هـ – ١٩٩١م .

❁٥–فاطمة صوت الحق الإلهي ، مُحسن المعلم ، دار الهادي للطباعة والنشر بيروت لبنان ، ط١ ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م .

❁فدك ابعادها– دلالاتها– وامتداداتها ، الدكتور الشيخ عبد المجيد فرج الله ، المحبين للطباعة والنشر ، مطبعة الرسول ، ١٤٢٩هـ –٢٠٠٨م

❁في رحاب القرآن ٧– الإصر والأغلال ، محمد مهدي الآصفي ، المشرق للثقافة والنشر ياران

❁مقاصد السور في القرآن الكريم ، المرجع آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي ، محبان الحسين ﷺ قم المقدسة ط١ ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م .

❁ملحمة الزهراء ، تأليف عبد العباس مصطفى الأسدي ، المطبعة العلمية ، ط١– ١٤٢٠هـ .

❁ النظرة القرآنية للمجتمع والتاريخ ، تأليف الاستاذ محمد تقي مصباح اليزدي ، منشورات دار الروضة بيروت لبنان ، ط١ ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .